الفصل الخامس
تضحية عظيمة

الرسولُ يستعدُّ للحجِ:

وفي العامِ السادسِ منَ الهجرة أراد رسولُ الله ﷺ زيارةَ البيتِ الحرامِ، والطوافَ بالكعبةِ، وأداءَ العمرةِ ، فخرجَ بأصحابه مرتدينَ ملابسَ الإحرامِ، إشارةً إلى عزمهمْ أداءَ شعائرَ العمرةِ وعدمَ رغبتهمْ في حربِ المشركينَ، فلمَّا اقتربَ من مكةَ دعَا الرسُول ﷺ «عمرَ بنَ الخطاب» ليرسلَه إلى «مكةَ» كيْ يُبَلِّغَ أشرافَ قريشٍ الهدفَ الذي جعلهُ يخرجُ، فقالَ «عمرُ»:

– «يا رسولَ اللَّه إني أخافُ قريشاً على نفسي وليسَ بمكةَ من بني عديٍّ ابن كعبٍ أحدٌ يمنعُني وقد عرفتْ قريشٌ عداوتي إياهَا وغلظتي عليهَا ولكنيِّ أدلكَ على رجلٍ أعزَّ بهَا مني، عثمانَ بن عفانَ»

فدعَا الرسولُ عثمانَ فبعثَه إلى أبي سفيانَ وأشرافِ قريشٍ يخبرهمْ أنه ما جاءَ لحربٍ وإنما جاءَ زائراً للبيتِ ومعظماً له[1]. وما كانَ لعمرَ أنْ يخافَ وهوَ الذي يتحدَّى المشركينَ حينَ أسلمَ وحينَ الهجرةِ وفي مجالاتٍ كثيرةٍ، لكنَّه هذه المرة لمْ يخرجْ من بيتهِ مقاتلاً متحدياً، وإنما خرجَ لأداءِ نسكِ العمرةِ التي لا يجوزُ فيهَا الجدالُ فكيفَ بالقتالِ. فاختارَ غيرهُ لهذهِ المهمةِ السِّلميَّة.

١– عثمان ذو النورين – محمد رضا– ص١٩، ص٢٠.

دعا الرسول ﷺ عثمان لمقابلته، وعرض عليه الذهاب إلى «أبي سفيانَ» وبقيةُ «أشرافِ مكةَ»، فقبلَ «عثمانُ» المهمةَ برضىً ورغبةٍ، خرجَ بنفسه، ذاهباً إلى مكةَ، مخبراً أهلَها من الكفارِ والمشركينَ الحاقدينَ على الرسُول وأصحابِه أن رسولَ اللَّهِ ما خرجَ لحربهمْ وإنما خرج لأداء العمرة مع أصحابه.

رسولُ رسول اللَّه:

لقدْ أصبحَ «عثمانُ» الآنَ في مهمةٍ محددةٍ، يجبُ عليه تنفيذهَا، فهو رسُولُ رسُولِ اللَّه إنه مكلفٌ أن يبلغَ المشركينَ «الرسالةَ»، وبالفعلِ خرجَ من «الحديبيةِ»، وسارَ حتى وصلَ إلى «مكةَ»، وهناكَ قابلَ «أبا سفيانَ» وعظماءَ قريشٍ، وبلَّغهُم رسالةَ «الرسول ﷺ»، فاستمعوا إليهِ، حتى إذَا ما انتهى قالُوا له:

– «إن شئتَ أن تطوفَ بالبيتِ فطفْ»[1].

إنهمْ يسألونَه إن كانَ يريدُ الطوافَ حولَ الكعبةِ؛ فإنهم لن يمنعوه من ذلك، وكأنهم أرادوا بذلك وضع جذور فتنة بين عثمان وبين رسول الله، ففطن عثمان وقال على الفورِ:

– «ما كنتُ لأفعلَ حتىَ يطوفَ بهِ رسُول اللَّه –صلى اللَّه عليه وسلم».

إنه «عثمانُ» رسُول «رسُولِ اللَّه» الرجلُ الأمينُ، لا يرضَى أن يطوفَ

١– سيرة ابن هشام – جـ٣– ص٢٠٢– مكتبة شقرون.

بالكعبة – على عظم شوقه لذلكَ – قبلَ أن يطوفَ بها الرسُول، إنها الأمانةُ في أسمَى معانيهَا –ذلكَ هو ردُّ «عثمانَ».

المشركُونَ يحبسونَ «عثمانَ»:

كالعادةِ أصرَّ مشركُو مكَة على باطلهمْ، وغلبهمْ العنادُ، وتحكَّمَ في عقولهمْ، فلمْ يستطيعوا التفكيرَ، ولم يستجيبوا لكلماتِ الرسُول الواضحَة التي وصَّلها «عثمانُ» إليهمْ، ووصلَ بهِم الطيشُ إلى أن قرروا حبسَ «عثمانَ» وعدم السماحِ له بالعودةِ، ولمْ يكنْ من عادةِ العربِ الإساءةَ إلى «الرسُول» المكلَّفِ بنقلِ رسالةٍ، حتى في حالةِ الحربِ كانَ معلوماً لديهمْ أن «حاملَ الرسالةِ» لا يُضَرُّ ولا يمسَّهُ أحدٌ بأذَى، وإنما هو قدْ أتى برسالةٍ يردُّ عليها برسالةٍ مماثلةٍ، وعارٌ أن يعتديَ أحدٌ عليهِ. لكنَّ «قريشاً» أشغلتْ عثمانَ بزيارة أقاربهِ والمستضعفينَ من المسلمينَ، وأشاعتْ أنَّ عثمانَ قُتلَ.

وصولُ الخبرِ إلى «الرسُول ﷺ»:

ووصلَ الخبرُ إلى الرسول ﷺ، وصحابتِهِ الكرامِ، أن «عثمانَ» قد استشهدَ، هو والعشرةُ الذينَ ذهبُوا معه، فقالَ «الرسول ﷺ»

– «لا نبرحُ حتى نناجزَ القوم»[1].

لقد خرجَ الرسُول منذُ البدايةِ زائراً للبيتِ الحرامِ، راغباً في أداء مناسكِ

١– عثمان ذو النورين –محمد رضا– ص١٩.

العمرةِ، معظماً لحرمةِ الكعبةِ، لكنَّ الخبرَ الذي وصلَه يقولُ إن قريشاً لم تحترمْ أبسطَ المبادئ المعروفةِ وقتلتْ عثمانَ وأصحابه، وهم رسلٌ لا يقتلونَ؛ لذلكَ قررَّ «الرسُول» ألاّ يتركَ مكانَه في «الحديبيةِ» حتى يقاتلَ المشركينَ.

«بيعةُ الرضوانِ»:

واجتمعَ «الرسول ﷺ» مع أصحابهِ الكرامِ على رأيٍ واحدٍ، وهو «الحرب» إن صحَّ أن «عثمانَ» وبقيةَ الرسلِ قد قتلوا، وعاهدَ الصحابةُ «الرسولَ» على ذلكَ، ومدحهُم اللَّه تعالَى فذكرَ هذا الموقفَ في كتابهِ الكريمِ فقال:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾.

وللمرةِ الثانيةِ، بعدِ «غزوةِ بدرٍ» يفعلُ الرسول ﷺ بنفسهِ أمْراً نيابةً عن «عثمانَ»، فلقد رمَى بسهمٍ في الحربِ نيابةً عن «عثمان» إذْ إنَّه كان إلى جوارِ «السيدةِ رقية» زوجهِ أثناءَ مرضهَا، وفي هذهِ المرةِ وضعَ «الرسول ﷺ» يدهُ اليمنَى على يدهِ اليسرىَ قائلاً:

- «اللهمَّ هذه عنْ «عثمانَ» في حاجتكَ وحاجَة رسولكَ»[1].

وهذا الموقفُ من الرسولِ دليلٌ على أن خبرَ وفاةِ «عثمانَ» لم يكنْ

١-عثمان ذو النورين -محمد رضا- ص١٩.

محققاً لدَى المسلمينَ، ولم يتخلفْ أحدٌ من المسلمينَ عن هذهِ البيعةِ.

ثم وصلَ الخبرُ الصحيحُ إلى رسولِ اللَّه، بأن «قريشاً» لم تقتلْ «الرسلَ» والذي وصلَه عن «عثمانَ» قبلَ ذلكَ باطلٌ، فاطمأنَّ «الرسول ﷺ» وصحابتُه الكرامُ، وانتظرُوا ما ستفعلهُ «قريشٌ»، وقد أرسلتْ بعدَ ذلكَ مَنْ يفاوضُ «الرسُول» على الصلْح ذلكَ اليوم، في ذلك اليومِ الخالد رضيَ اللهُ عنِ المؤمنينَ عندمَا بايعوا «الرسُول» علَى الحرب، إن كانَ «عثُمان» وأصحابُه الرسُل قد قتلوا، فيا لَه من فداءٍ عظيمٍ، وحبٌ كبيرٍ جعلَه اللَّهُ في قلوبِ المؤمنينَ ذكرهُ اللَّه في القرآنِ الكريم إذ يقولُ: ﴿**لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ**﴾.

إن الذي جعلَ المؤمنينَ يفدونَ «عثمانَ» وأصحابَه بأرواحهمْ هو أنَّ قلوبَ الصحابةِ العظامِ قد اجتمعتْ علَى أمرٍ واحدٍ لا فرقةَ معهُ، أمرٍ واحدٍ .. هو نصرة دينُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

وكان بعدها صلح الحديبية والذي اتفق فيه المسلمون والمشركون على الصلح وفق البنود التالية:

١- وضع الحرب عن الناس عشر سنين.

٢- من أتى محمداً مسلماً من قريش رده عليهم. ومن جاء قريشاً مرتداً لم يردوه.

٣- أن يكف المسلمون عن المشركين، وأن يكف المشركون عن المسلمين.

٤- لا سرقة ولا خيانة.

٥- من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

٦- أن يرجع النبي في هذا العام فلا يدخل مكة، وفي العام القابل يخرج المشركون منها فيدخلها النبي ﷺ وأصحابه، فيقيم بها ثلاثاً معهم سلاح الراكب والسيوف في القرب لا يدخلونها بغيرها(١).

١-سيرة ابن هشام جـ٣ ص٢٧٢ ـ بتصرف.

obeikandi.com